الإجابه النموذجيه

«على فكرة السما رمادي مش زرقا»...

كانت تلك هي العبارة القاطعة التي استدرك بها إبني الأصغر ذو الأربع سنين على قول أمه وهي تحاول أن تقطع ثرثرته التي لا تنتهي، مُحاولةً أن تصرف نظره إلى أمر - اعتبرته بديهي وغير قابل للاستدراك عليه - قائلة «كفاية كلام وشوف السماء زرقاء وجميلة إزاي». كان السياق يقضي بأن هناك أمر مقطوع به كفيل بأن ينهي ثرثرة الصغير، وهو أن نعطيه ما نتصوره أنه «الإجابة النُموذجية» عن لون السماء دون أن ننظر إلى واقعها الغائم لحظة طرحنا لتلك الحقيقة. ولكن يقينًا لم تفلح معه لا لشيء إلا لكونه شأن أبناء سنه، أقرب للفطرة منا.

«الإجابة النموذجية» تبدو هي ذلك الاسم البريء لمعيار الأداء الأمثل في تعليمنا المصري، والقائم بالأساس على التلقين والحفظ، والذي كلنا نحتاجه. ولكن بقليل من التأمل سيتأكد لنا أنها أحُيلت في واقعنا إلى منهج حياة وإطار حاكم لفكرنا ومُتغول على حركتنا.

«الإجابة النموذجية» في حقيقتها تأسيس ضمني لمعنى أن «الحقيقة واحدة» . ومن ثم صاحب تلك «الإجابة» هو المصدر الوحيد «للحقيقة والحكمة». وعلى خلفية إقرارنا الجماعي هذا بأن الحقيقة محتكرةً في رواية واحدة، نُدفع دفعًا إلى البحث الدائم عن المخُلص - صاحب الحقيقة - وتتملكنا رغبة في التسليم له بالتبعية الكاملة وإلغاء العقل، بل والإذعان التام. وإذا كان هذا هو حال من يَتبع، فيكون حرص من يريد أن يُتبع هو تكريس تلك القاعدة بأن الحقيقة واحدة وأنه هو مصدرها.

فكما أن تعليمنا لم يعُد سبيلاً للمعرفة أو الترقي حين ابتذلناه طريقًا للحصول على «صك» أو «شهادة» تَشهد لنا بما ليس فينا «وهو أننا مُتعلمون»، أصبح لدينا يقينًا بأن البحث في مقاصد «الإجابة النموذجية» أو جدواها هو ترف غير ملزم .. وأصبح الأهم منه هو أن نجد ما يريح نفوسنا من ملامحها وملامح من يحملها.

وكما عَلّمَنَا تعليمنا أن البُعد الدفترى (الافتراضي منه) أهم من واقعه وأثره - وبأن «يُشهَد» لنا بالتعلم أهم من أن «نؤهَل» بالتعلم - أصبح البحث الحثيث عن إجابة ملأى بالكلام المُنمق ذو الملمح الوطني والأخلاقي والمثالي عن كل ما يحيرنا في واقعنا، هو الهدف والمبتغى. وحبذا لو أضفينا الملائكية والعصمة على من يعطينا تلك الإجابة.

أما من يقدم نفسه على أنه المصدر الوحيد للحقيقة فتكون المبالغة واختزال معالي المعاني واستهلاك مبانيها (اسمائها) في الاستدلال على الدارج في حياة الناس هي سِمَتُه والتمثل بالخوارق هو سَمتُه. ومن إضفاء الصفات الخارقة على مدرسي الدروس الخصوصية (وهم رموز الإجابة النموذجية) كـ«عملاق الكيمياء» و«وحش الفيزياء» – وهي على طرافتها التسويقية - مطلوبة لاستكمال منظومة السلب العقلى لمتلقيهم من الطلاب، فبمثلها وجدنا للنهضة «مهندسًا» و«طبيبا» وللسياسة «نبيًا» و«رسولا».

ومع الزخم الثوري وفرص الاغتنام السياسي تروج سوق الإجابات النموذجية.

فـ«طامحي» و«مرشحي» المناصب القيادية، على ما يبدو من تنوعات في خلفياتهم، لكنهم متفقون في نوع العلاقة مع الناخب المحتمل وهو كونه كائن يدلس عليه و«مفتاح» عقله هو في «تغييب» عقله.

الإجابات النموذجية التي نسمعها حتى الآن تكاد تكون واحدة فالحديث عن محور قناة السويس واحد، والحديث المرسل عن قضايا التعليم والصحة واحد. أحاديث تبدأ بالتذكرة بماسببه النظام السابق من فساد، ليس للحديث العلمي التفصيلي عن كيفية إصلاحه، ولكن لعقد مقارنة بين رموز الفساد وبين شخص المتحدث والذي يلتمس من مستمعيه أن يتوسموا فيه الخير ويفترضوه خيرًا مطلقًا غير قابل للفساد والإفساد.

وفي وسط «سوق عكاظ» الانتخابي الحالي، يضيع الحديث عن واجب الوقت في مصر التي غُيبَ فيها معنى الوطن، قبل أن تتحلل الدولة وبُدِدَ فيها ملمح المجتمع قبل الغياب والتحلل. فلا حديث عن استحقاقات تأسيس الدولة أو استعادة معنى الوطن أو إحياء روح المجتمع.

ومن العجب أن تلك كانت الموضوعات والإجابات «غير النموذجية» التى صنعت دولا مثل ماليزيا وقبلها إمبراطوريات حالية كالولايات المتحدة، حين اهتدوا بمعانيها، وذلك ما نحتاجه.

فلم يكن الحديث عن «تحرير المواطن نفسيًا» أو تحقيق «الكبرياء الوطني المستحق» عند تأسيس ماليزيا من باب الشعارات الجوفاء، بل كانت هي محددات عملهم الاستراتيجي وواقع تخطيطهم ومعيار ماقيل عنه أنه «نهضة» ماليزيا بشهادة العالم بعد أكثر من ثلاثين سنة من بداية مشوارهم الجاد. لم يخلع مهاتير محمد علي نفسه أي من ألقاب الفتح أو الريادة أو القيادة، بل خلعت عليه كألقاب مستحقة .. لأنه كان صادقًا في أن يحيي مجتمعه ولا يغيبه.

وكذلك لم تكن عبارات من نوع «الحق في الحياة والحرية واقتفاء السعادة» والتي دُبج بها إعلان الاستقلال الأمريكي منذ أكثر من مائتي عام .. طنطنة فلسفية فارغة للآباء المؤسسين للإمبراطورية الحالية .. قدر ماكانت هي الإجابات الواجبة (غير النموذجية) التي صنعت مجتمعًا .. فألهمته وطنًا.. فأهدته دولة قادرة تقود عالمها.

ويبقى أن نقول: «إن الأوطان لا تبنى بالتمني .. والدول لاتؤسس بشعر الحماسة». أما إذا أردناها هكذا فقديمًا قالوا إن: «أعذب الشعر أكذبه».. فلنهنأ بأكثر الإجابات «عذوبة» على لسان أي أو كل مخلص ممن يزاحموا بالمناكب .. ولنترك استعادة الوطن وتأسيس الدولة لأجيال تأتي بعدنا لا أقول أكثر منا جدية .. بل أكثر منا استفاقة.

فكروا تصحوا...